



مصطفى عبد الله عبد الحميد
باحث شرعي في المعاملات المالية

صور لتطبيقات الوقف على الصحة في المجتمع الإسلامي

الوقف بصورة جليلة كيف يشكل الوعي والبذل دورا هاما في بناء الأمم بعيدا عن الاعتماد على الأنظمة الحاكمة، وأن البناء الحضاري لهذه الأمة يقوم بسواعد أفرادها غير منتظرين لما تقوم بها المؤسسات الرسمية. وقد اختلف في أول وقف تم في التاريخ الإسلامي، فقال بعضهم: إن أول وقف كان من النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت بساتين لرجل يهودي من بني النضير اسمه "مخيريق" فقال: إن أصبتُ فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء. فأصيب يوم أحد، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف ماله أوقافا، فكان هذا أول وقف في الإسلام^(١).

وذهب بعضهم الآخر إلى أن أول وقف حدث في الإسلام هو وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فروي عن ابنه عبد الله بن عمر أنه قال: «أول صدقة كانت في الإسلام صدقة عمر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «احبس أصولها، وسبل ثمرتها»^(٢).

وذهب فريق ثالث إلى أن أول وقف في الإسلام هو وقف عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة»^(٣) وهي بئر كانت لليهودي، وأراد لنبي صلى الله عليه وسلم أن يشتريها أحدًا، ويجعلها سبيلاً للمسلمين يشربون منها، فنعل عثمان رضي الله تعالى ذلك، واشتراها، وجعلها سبيلاً للمسلمين.

وعلى كل حال فإن مسيرة الوقف الإسلامي لم تتوقف منذ عهد النبوة، وسارت في طريقها لتحقيق أهدافها من المساهمة في التطور والارتقاء بالمستوى العلمي والصحي والاجتماعي للمجتمع الإسلامي، وسوف نعرض فيما يلي بعض الصور من الوقف على رعاية الصحة وتطبيقاته في المجتمع الإسلامي عبر تاريخه على المستوى الصحي.

الوقف ودوره في الرعاية الصحية

لا شك أن توفير الرعاية الصحية هي من أهم التحديات التي تواجه أي دولة أو حكومة، ويُقدَّر مدى نجاح أي نظام حاكم بعدة أمور من أبرزها مؤشرات الرعاية الصحية والتأمين الصحي الذي تكفله الدولة أو الحكومة لمواطنيها ورعاياها.

إن للأوقاف دور كبير عبر التاريخ في البناء الحضاري والتنمية للدول الإسلامية، وتلبية حاجات المجتمع المتنوعة، ودعم البرامج النافعة لعموم الناس، والتاريخ الإسلامي حافل بالأوقاف التي حققت مصالح المسلمين. ونظراً لسمو الغاية التي شرع الوقف من أجلها في الإسلام، فقد شهد بداية قوية في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، وشهد نمواً وتطوراً كبيراً في عصور الخلفاء الراشدين من بعده، ولم يمض إلا زمن يسير حتى بات أثر الوقف واضحاً، وتعددت مجالاته فشملت قطاعاً عريضاً من المجتمع الإسلامي، يستوي في ذلك كل من: الفقراء، والأيتام، والمرضى، والمعاقين، وطلبة العلم الحاضرين والمغتربين، وعابري السبيل... إلخ.

وكانت الأوقاف تمثل الركيزة الاقتصادية الأساسية في بناء الحضارة الإسلامية، حيث كان لهذا النظام أثره الواضح في إثراء كثير من جوانب هذه الحضارة وبنائها، فعن طريق الوقف بُنيت كثير من المساجد والمدارس ودور التعليم على اختلافها، وتم الصرف عليها بما يضمن استمرارها في أداء رسالتها على الوجه الأكمل، وعن طريق الوقف تمت متابعة الصرف على الحرمين الشريفين عبر كثير من العصور الإسلامية، وأمنت طرق الحج وسُهلَت رعاية الحجيج، وعن هذا الطريق أيضاً تم الصرف على عديد من الجيوش الإسلامية الموجهة للجهاد في سبيل الله تعالى، وفك أسر مجموعات من الأسرى المسلمين، وعن طريق الأوقاف تمت رعاية المرضى والمحتاجين من الفقراء والمساكين وأنشئت دور الرعاية الصحية والاجتماعية على اختلافها.

وبالجملة، فقد أصبحت موارد الأوقاف تغطي قطاعاً عريضاً من احتياجات المجتمع الإسلامي عبر عصوره المختلفة حتى خصصت له في عصورنا الحاضرة وزارات وإدارات عدة، ومع هذا فقد تراجعت فاعلية الأوقاف في هذا الزمان، فأصبح الوقف يعيش حالة ركود تستدعي التنادي إلى دراسة الأسباب وبحثها رغبة في تشييط دور الوقف للقيام بالمهام الريادية التي كان يقوم بها في إثراء الحضارة الإسلامية عبر عصورنا المختلفة.

وتبرز عظمة نظام الأوقاف الإسلامي في أنه كان نظاماً أهلياً بالدرجة الأولى، بمعنى أنه في كثير من الأحيان كان خارجاً عن جملة الإنفاق الحكومي الرسمي، وكان نتاجاً لجهود أهلية يقوم بها الأفراد، فأظهر

ويقول ابن جبير في وصفه: «ومما شاهدناه أيضا من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة.

وهو قصر من القصور الرائقة حسنا واتساعا أبرزه لهذه الفضيلة تأجرا واحتسابا وعين قوما من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكثه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها. ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسا. وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم، وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى. ولهن أيضا من يكفلهن، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين^(١).

المارستان العتيق:

بناه أحمد بن طولون في عام ٢٥٩هـ وتعد هذه المستشفى هي أول المستشفيات التي بنيت في مصر.

جاء في وصفها في المواعظ والاعتبار: «وشرط في المارستان ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك، وعمل حمامين للمارستان، إحداهما للرجال والأخرى للنساء، حبسهما على المارستان وغيره، وشرط أنه إذا جيء بالليل تنزع ثيابه ونفخته وتحفظ عند أمين المارستان، ثم يلبس ثيابا، ويفرش له، ويغدى عليه، ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ، فإذا أكل فُرُوجا ورغيفا أمر بالانصراف، وأعطى ماله وثيابه، وفي سنة اثنتين وستين ومائتين كان ما حبسه على المارستان والعين والمسجد في الجبل الذي يسمّى بتنور فرعون، وكان الذي أنفق على المارستان ومستغله ستين ألف دينار، وكان يركب بنفسه في كل يوم جمعة ويتفقد خزائن المارستان وما فيها والأطباء، وينظر إلى المرضى وسائر الأعداء والمحبوسين من المجانين^(٢).

التعليم الطبي:

انطلاقا من اهتمام المسلمين بشؤون الصحة فقد تنبهوا لأهمية التعليم الطبي نظريا وعمليا، وأنشؤوا المستشفيات التعليمية المتخصصة من أموال الوقف ومن ذلك إنشاء مستشفيات متخصصة للرمد، وأخرى للأمراض العقلية، وأخرى لمعالجة الجذام وغيرها.

ويقال إن أول من سن هذه الطريقة هو الخليفة المأمون؛ إذ بنى هذه المستشفيات المتخصصة في المدن الكبيرة، وأوقف عليها، وأرصد لها المحلات والدور والأراضي للصرف من ريعها على احتياجات هذه المستشفيات، وقد وجدت هذه المستشفيات التعليمية في كافة أنحاء العالم الإسلامي. وكان الطلبة يتمرنون في هذه المستشفيات تحت إشراف أساتذتهم.

أما كليات الطب ذات الدراسة المنتظمة فقد أتت في مرحلة لاحقة على ذلك، إذ نجد الوقفيات في العصر العباسي ابتدأت تشتغل بإنشاء كليات للطب متخصصة، وأن تنشأ بحيث تتزامن مع إنشاء المستشفيات التعليمية، فقد ألحقت مدرسة للطب مثلا بمدرسة المستنصرية، واشترطت الوقفية

وبدورها اهتمت الدولة الإسلامية بتوفير هذه الرعاية واعتبرتها حقا للمسلم، فحفظ النفس من مقاصد الشريعة الرئيسة، فكل ما يؤدي إلى حفظ النفس مطلوب مقصود، وتوفير الرعاية الصحية هو بطبيعة الحال أحد أهم هذه الضروريات المطلوبة.

وقد تنامي بجانب الدور الرسمي الذي كانت تمارسه الدولة الإسلامية في توفير الرعاية الصحية دور قطاع المساهمات الخيرية، والذي لم يكن غائبا في تاريخ الأمة الإسلامية، بل إنه سجل حضورا قويا وفاعلا في هذا المجال حيث لم تكن هناك وزارات للصحة بمفهومها الحديث، وإنما كانت الأمة تقوم غالبا من خلال أفرادها باختلاف مواقعهم ومهنتهم بهذا الدور، وقد تحقق في كثير من الأحيان الكفاية الصحية في المجتمع الإسلامي من خلال المؤسسات الخيرية ومن ضمنها بطبيعة الحال الأوقاف الإسلامية^(٣).

بعض صور الوقف المتعلقة بالرعاية الصحية في التاريخ الإسلامي

المارستان (المستشفى) المنصوري:

أنشئ سنة ٦٨٢هـ، وسمي بذلك نسبة إلى السلطان الناصر قلاوون، وكان من أكبر المستشفيات في الشرق الإسلامي، قال ابن بطوطة في وصفه: «وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواسف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، يذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم^(٤).

وكان هذا المستشفى يقع في القاهرة، وعُرف بدقة التنظيم وفائق العناية بالمرضى على اختلاف طبقاتهم، فكان للملك والمملوك، والكبير والصغير، والحر والعبد، وكان هذا المستشفى الكبير مقسما إلى أربعة أقسام: للحميات، والرمد، والجراحة والنساء وخصص لكل مريض فرش كامل، وعين له الأطباء والصيدال والخدم، كما زود بمطبخ كبير، وكان المريض إذا ما برئ وخرج تلقى منحة وكسوة.

وقدرت الحالات التي يعالجها المستشفى في اليوم الواحد بعدة آلاف، وألحقت به مدرسة للطب يجلس فيها رئيس الأطباء لإلقاء درس طب ينتفع به الطلبة^(٥).

المارستان الصلاحي:

أنشأه صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ، وقد اختار أحد قصوره الفخمة، وحوله إلى مستشفى ضخم كبير، وانتقى في اختياره ذاك قصرا بعيدا عن الضوضاء، ويقال أنه لما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية من الفاطميين أنشأ هذه المستشفى في أحد قصورهم^(٦).

يقول المقرئزي: «أمر السلطان يعني صلاح الدين يوسف بن أيوب بفتح مارستان للمرضى والضعفاء، فاختر له مكان بالقصر، وأفرد برسمه من أجرة الرباع الديوانية مشاهرة، مبلغها مائتا دينار، وغلات جهاتها الفيوم، واستخدم له أطباء، وطبائعين، وجراحين، ومشارف، وعاملا، وخداما، ووجد الناس به رفقا، وإليه مستروحا، وبه نفع^(٧).

الأهلية على إدارة الأوقاف وتنظيمها، بحيث تكون قادرة على ملء الفراغ الناتج من إهمال الوقف من قبل الحكومات والأنظمة الرسمية. وكذلك محاولة التوعية المستمرة الموجهة إلى عموم الناس داخل المجتمعات الإسلامية بأهمية الوقف وإخراجه من مفهومه الضيق المقتصر على بناء المساجد وبعض وجوه البر البسيطة إلى المفهوم الشامل له، والمؤثر في كافة مجالات الحياة عن طريق إبراز دوره في تحقيق النهضة الشاملة لهذه الأمة.

الهوامش :

١. الروض الأنف، عبد الرحمن السهيلي، تحقيق عمر عبد السلام السلمي، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م (٢٩/٦).
٢. المسند لأحمد بن حنبل، مسند عبد الله بن عمر، رقم الحديث (٦٤٦٠). (٤٨٧/١٠) وهذا الأثر ضعيف لوجود عبد الله بن عمر العمري في إسناده وهو ضعيف. انظر: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، شهاب الدين الكنتاني، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م (٢١/٣).
٣. السنن، لمحمد بن عيسى الترمذي، أبواب المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه، رقم الحديث (٢٧٠٣)، (٦٢٧/٥).
٤. الوقف ودوره في المجتمع الإسلامي المعاصر سليم منصور، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، ص ٨٧.
٥. رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ (٢٠٣/١).
٦. الوقف وأثره التنموي، علي جمعة، ضمن أبحاث ندوة نحو دور تنموي للوقف، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت ١٩٩٣م، ص ١١٧.
٧. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م (ص ٢٤٨).
٨. المواظ والاعتبار، لتقي الدين المقرئ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ (٢٨٨/٢).
٩. رحلة ابن جبیر، دار بيروت للطباعة والنشر، الطبعة الأولى (ص ٢٦).
١٠. المواظ والاعتبار، المقرئ (٢٧/٤).
١١. الوقف ودعم مؤسسات الرعاية الصحية، عبد العزيز بن حمود، بحث في ندوة مكان الوقف وأثره في الدعوة والتنمية (ص ٤٥).
١٢. الوقف وبنية المكتبة العربية، يحيى ساعاتي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م (ص ١٢٣).
١٣. الوقف ودعم مؤسسات الرعاية الصحية (ص ٤٥).

المصادر والمراجع

- إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، شهاب الدين الكنتاني، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
- رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ.
- رحلة ابن جبیر، دار بيروت للطباعة والنشر، الطبعة الأولى.
- الروض الأنف، عبد الرحمن السهيلي، تحقيق عمر عبد السلام السلمي، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
- السنن لمحمد بن عيسى الترمذي، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.
- صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.
- المسند لأحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
- المواظ والاعتبار، لتقي الدين المقرئ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- الوقف وأثره التنموي، علي جمعة، ضمن أبحاث ندوة نحو دور تنموي للوقف، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت ١٩٩٣م.
- الوقف وبنية المكتبة العربية، يحيى ساعاتي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
- الوقف ودعم مؤسسات الرعاية الصحية، عبد العزيز بن حمود، بحث في ندوة مكان الوقف وأثره في الدعوة والتنمية.
- الوقف ودوره في المجتمع الإسلامي المعاصر، سليم منصور، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

التي أنشأت هذه الكلية أن يتردد الأطباء الأساتذة مع طلبتهم على مرضى مدرسة المستنصرية صباح كل يوم لمعالجة طلبتها وإعطائهم الدواء، وأن تكون هنالك أقسام داخلية للطلبة مع مخصصات شهرية تدفع لدارسي الطب عدا المواد العينية التي كانت توزع عليهم كل يوم.

وقد كان تدريس الطب نظرياً يجري في تلك المستشفيات، حيث كان في المستشفيات الكبرى قاعات كبيرة للمحاضرات يلقى بها الأساتذة محاضراتهم والطلبة معهم كتبهم وآلاتهم، وتجرى المناقشات الطبية ثم يصطحب الأستاذ تلامذته للمرور على المرضى لمعالجتهم ولتمرين الطلاب على الحالات العملية.

ولم يكن يسمح للطبيب بعد تخرجه بالمعينة والمعالجة إلا بعد أن يؤدي اختباراً أمام كبار الأطباء، ويقدم رسالة في نوع تخصصه الذي يرغب الحصول على الإجازة فيه مثل حقل الجراحة، والكحالة أو أمراض العظام والتجبير أو في غيرها من التخصصات، فإذا اجتاز الاختبار منح الشهادة وزاول مهنة الطب^(١١).

مكتبات المارستانات:

تعتبر مكتبات المارستانات من أقدم ما عُرف في تاريخ المكتبات العربية، رغم التخصص الدقيق للمارستان، وخصصت أوقاف كثيرة للإنفاق على تأليف الكتب في الصيدلة والطب، واستطاع الأساتذة أن يكملوا كتبهم نتيجة لمثل هذا التحضير العلمي^(١٢).

وعلاوة على وقف المستشفيات والإنفاق على تعليم الطب وتعلمه وما يتصل بذلك، نجد أن الوقف قد شمل أموراً كثيرة ذات علاقة بصحة الإنسان، ومنها الوقف على إنشاء وصيانة الحمامات العامة وما يتبعها. فقد احتوت أكثر الوقفيات الخاصة بإنشاء المستشفيات على إنشاء مرافق النظافة والحمامات العامة ومجاري المياه والصهاريج، كما شملت الأوقاف العناية بالأطفال وتغذيتهم، ورعاية العاجزين والعميان والمقعدين وكبار السن وغيرهم من فئات المجتمع الذين هم بحاجة إلى مثل هذا الخدمات.

ولا يتسع المجال لسرد كثير من الأمثلة في أوقاف المسلمين على كل ما يتعلق بالصحة والرعاية الصحية عبر التاريخ الإسلامي الزاهر^(١٣).

وأخيراً فإن الدارس للتشريع الإسلامي وأثار هذا التشريع وتطبيقاته على أرض الواقع يدرك تمام عظمة هذه الشريعة الإسلامية التي استطاعت أن ترسم وتؤصل للمجتمع المثالي الذي لم يكتب له التحقق سوى في خيالات الفلاسفة، فقد تمت الحل لكافة المشكلات التي تواجه المجتمع الإسلامي على كافة الأصعدة، وبدوره كان الوقف أحد هذه الأدوات الناجعة التي استطاعت منظومة التشريع الإسلامي تطويعها لأداء دوراً حاسماً وهاماً في تحقيق التكافل الاجتماعي والمساهمة الفاعلة في تحقيق النهضة العلمية بالإضافة إلى دوره في منظومة الرعاية الصحية وغير ذلك.

وأوصي نفسي والباحثين الاهتمام بتفعيل دور الوقف خارج النطاق الحكومي أو الرسمي من خلال الدراسات التي تساعد المنظمات المدنية والجمعيات